□ عُلُوُّ الهِمَّةِ في الخُشُوع □

اعلم – رحمنا الله وإياك – أن الخشوع قيامُ القلب بين يدي الربّ بالخضوع والذلّ والجمعيَّة عليه ، ورقَّة القلب وسكونه وانكساره وحُرْقته .

والخشوع : خمود نيران الشهوة ، وسكون دُخَان الصدور ، وإشراق نور التعظيم في القلب ، واستحضار عظمة الله وهيبته وجلاله .

والخشوع قاسَمٌ مشترك بين الأخلاق والعقيدة والعمل ، يغذوها بخشية الله ، فتؤدِّي مقصودها في النفس والقلب معًا .

الخشوع معنًى شرعيّ وسلوكٌ سُنّيّ ، فيه كلّ الانقياد لله ربِّ العالمين .

قال الجنيد : الخشوع تذلُّل القلوب لعلّام الغيوب .

والقلب أمير البدن ، فإذا خشَع القلب ، خشع السمع والبصر والوجه وسائر الأعضاء وما ينشأ عنها ، حتى الكلام .

الخشوع يقظة دائمة لخلَجَات القلب وخفقاته ولفتاته حتى لا يتبلد ، وحذَرٌ من هواجسه ووساوسه ، واحتياط من سهواته وغفَلاته ودفعاته ، خشية أن يزيغ وتعتريه القساوة .

والخشوعُ عِلمٌ نافع يُباشر القلب ، فيوجب له السكينة والخشية ، والإخباتَ والتواضعَ والانكسارَ لله ، وكلُّ أولئك رشْحٌ من فيْض الخشوع[(١)] .

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه ؛ أنَّ النبي ﷺ كان يقول : « اللهمَّ

---

(١) انظر رسالة : الخشوع وأثره في بناء الأمة . لسليم بن عيد الهلالة – دار ابن الجوزي . والخشوع في الصلاة ، لابن رجب الحنبلي . تعليق : علي حسن عبد الحميد – طبع : دار عمار .

إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا تُستجاب »(١) .

والخشوع أولُ علمٍ يُرفع مِن بين هذه الأمة :

عن شداد بن أوس : أن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يُرفع من الناس : الخشوع »(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أول شيءٍ يُرفع من هذه الأمة الخشوع ، حتى لا ترى فيها خاشعًا »(٣) .

وقال حذيفة رضي الله عنه : « أول ما تفقدون من دينكم : الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم : الصلاة »(٤) .

وقد مدح الله في كتابه الخاشعين المنكسرين لعظمته ؛ فقال تعالى : **﴿ إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رَغَبًا ورَهَبًا وكانوا لنا خاشعين ﴾** [الأنبياء : ٩٠] .

وقال تعالى : **﴿ إنَّ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدِّقين والمتصدِّقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات**

---

(١) رواه مسلم .

(٢) صحيح : أخرجه الطبراني في الكبير ، والبخاري في خلْق أفعال العباد ، والنسائي في الكبرى ، والبيهقي في المدخل ، والحاكم وابن حبان ، والبزار والخطيب في اقتضاء العلم العمل ، والطبراني في الأوائل ، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

(٣) صحيح : رواه الطبراني في الكبير ، وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٥٤٣ ، وصحيح الجامع رقم ٢٥٦٩ .

(٤) مدارج السالكين ٥٢١/١ .

والذاكرين الله كثيرًا والذكرات أعدَّ الله لهم مغفِرة وأجرًا عظيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فأُولى المنازل التي يحطُّ فيها الخاشعون رِحالَهم : مغفرةٌ من الله تمحق السيئات وتُرْبي الحسنات والأجر العظيم ؛ قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لَمن يُؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران: ١٩٩] .

وللخاشعين البشرىٰ مِن ربِّهم :

قال تعالى : ﴿ **فإلٰهكم إله واحد فله أسلِموا وبشِّرِ المخبتين** ﴾ [الحج : ٣٤] .

ووصَفَ الله المؤمنين بالخشوع في أشرف عبادتهم وهي الصلاة ، وبيَّن أن الخشوعَ طريقُ الفلاح في الدنيا والآخرة ؛ يحُسُّه المؤمن بقلبه ، ويجد مصداقه في واقع حياته ، وعدٌ من الله بالفلاح الذي لا يخطر على قلب بَشَر . قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتِهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ١ - ٢] .

ووصف الله الذين أوتوا العلم بالخشوع حين يسمعون كلامه ؛ فقال : ﴿ **إنَّ الذينَ أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخِرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولًا ويخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٩] .

والخشوع طريقٌ إلى أعالي الفردوس :

قال تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ [هود : ٢٣] . وقال تعالى : ﴿ **أولئك هم**

الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ [المؤمنون : ١٠ - ١١] .

والخشوع ثباتٌ على منهج الله :

قال تعالى : ﴿ **وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحقُّ من ربِّك فيؤمنوا به فتُخبِتَ له قلوبُهم وإنّ الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم** ﴾ [الحج : ٥٤] .

والقلب الخاشع بعيد عن الشيطان :

قال سهل : « مَن خشع قلبُه لم يقرْب منه الشيطان »(١) .

عِتابٌ من اللهِ تعالى واستبطاءٌ للصحابة ، يدلُّ على عِظمِ منزلةِ الخشوع :

ولولا عظم منزلة الخشوع وعُلوّها ، لَمَا عاتَب الله الصحابة أفضلَ القرون ، الذين لم يصلوا إلى تلك المرتبة السامية التي يريدها الله لهم بعد بضع سنين واستبطأهم .

قال تعالى: ﴿**ألمْ يأنِ للذينَ آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقِّ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلُ فطال عليهم الأمَدُ فقسَتْ قلوبهم وكثير منهم فاسقون اعلموا أنَّ الله يُحيي الأرضَ بعد موتها قد بيَّنَّا لكم الآياتِ لعلّكم تعقلون** ﴾ [الحديد : ١٦ - ١٧] .

قال ابن مسعود : « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله** ﴾ ، إلّا أربع سنين » . رواه مسلم .

رنَّة عتاب للمؤمنين الذين لم يبلغوا قمَّة الخشوع الذي يرضاه الله للعُصْبة المؤمنة الأولى التي حملتِ المنهج الرباني . عتاب لجيل القدوة الذي استوى على

(١) مدارج السالكين ٥٢٢/١ .

سوقه في أحضان النبي الأسوة ﷺ .

« عتاب من المولىٰ الكريم الرحيم ، واستبطاء للاستجابة الكاملة من تلك القلوب التي أفاض عليها من فضله ، عتاب فيه الوُدُّ ، وفيه الحضُّ ، وفيه الاستجاشة إلى الشعور بجلال الله ، والخشوع لِذِكْره ، وتلقِّي ما نزل من الحقِّ بما يليق بجلال الحقِّ من الروْعة والخشية والطاعة والاستسلام .. إن هذا القلب البشري سريع التقلُّب ، سريع النسيان ، وهو يشفُّ ويُشرف فيَفيض بالنور ، ويرفُّ كالشعاع ، فإذا طال عليه الأمد بلا تذكير ولا تذكُّرٍ تبلَّد وقسَا ، وانطمست إشراقاته ، وأظلم وأعْتَمَ . فلا بدَّ من تذكير هذا القلب حتى يذكر ويخشع ، ولا بدَّ من الطرْقِ عليه حتى يرفَّ ويشفَّ ، ولا بدَّ من اليقظة الدائمة كَيْ لا يصيبه التبلُّد والقسَاوة .

ولكن لا يأس من قلب خمد وجمد وقسا وتبلّد ؛ فإنه يمكن أن تدبَّ فيه الحياة ، وأن يُشرق فيه النور ، وأن يخشع لذكْر الله ؛ فالله يحيي الأرض بعد موتها فتنبض بالحياة ، وتزخر بالنبْت والزهر ، وتمنح الأُكُل والثمار ، وكذلك القلوب حين يشاء الله ... »[(١)]، يحييها بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلَّتها ، ويفرِّج الكروب بعد شدَّتها ، كما يُحيي الأرض الخاشعة المجدبة الهامدة بالغيْث الهتان الوابل .. والقرآن ربيعُ قلب المؤمن ، كما أن الغيث ربيعُ الأرض .

قال ابن عباس : « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين ، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن »[(٢)].

---

(١) الظلال ص٣٤٨٩ .

(٢) مدارج السالكين ١/٥٢٠ .

آيةُ الخُشوعِ سببٌ في توْبةِ وخشوعِ الجَبَلَيْن : عبدِ الله بنِ المبارك ، والفُضَيل ابن عِياض :

قال القرطبي : « هذه الآية : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبُهم لذكْر الله** ﴾ [الحديد : ١٦] . كانت سبب توبة الفضيل بن عياض وابن المبارك رحمهما الله :

قال الحسن بن داهر : سُئل عبد الله بن المبارك عن بدْءِ زهْده ، قال : كنتُ يومًا مع إخواني في بستانٍ لنا ، وذلك حين حملتُ الثمار من ألوان الفواكه ، فأكلنا وشربنا حتى الليل ، فنِمْنا ، وكنتُ مُولَعًا بضرْب العُود والطنبور ، فقمتُ في بعضِ الليل ، فضربتُ بصوتٍ يُقال له : راشين السَّحَر ، وطائر يصيح فوق رأسي على شجرة ، والعودُ بيدي لا يجيبني إلى ما أريد ، وإذا به ينطق كما ينطق الإنسان - يعني العُود الذي بيده - ويقول : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحق** ﴾ . قلتُ : بلىٰ والله . وكسرتُ العُود ، وصرفتُ مَنْ كان عندي ، فكان هذا أول زُهدي وتشميري .

وأمَّا الفضيل بن عياض : فكان سبب توبته أنه عَشق جارية فواعدته ليلًا ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، إذْ سَمِع قارئًا يقرأ ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾. فرجع القهقرىٰ وهو يقول : بلىٰ والله قد آن ، فآواه الليل إلى خربة وفيها جماعة من السابلة ، وبعضهم يقول لبعض : إن فُضيلًا يقطع الطريق . فقال الفضيل : أوّاه !! أراني بالليل أسعىٰ في معاصي الله ، وقومٌ من المسلمين يخافونني !! اللهمَّ إني قد تبتُ إليك ، وجعلتُ توبتي إليك جَوار بيتك الحرام »[1].

وفي رواية : أنه قال للقافلة : يا قوم ، أنا الفضيل ، جُوزوا ؛ والله لأجتهدنَّ

(١) القرطبي ٩/٦٤٢١ .

أن لا أعصي الله أبدًا . فرجع عمَّا كان عليه .

أما خشوع ابن المبارك : فهو أشهر من أن يُذكر ؛ كان إذا قرأ في كتابه «الرقائق» فكأنه بقرة منحورة ، من كثرة البكاء ، وكذا كان الفضيل في خشوعه .

قال سعد بن زنبور : « كنا على باب الفضيل بن عياض ، فاستأذنَّا عليه فلم يُؤْذن لنا ، فقيل لنا : إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن . قال : وكان معنا رجل مؤذِّن وكان صَيِّتًا[1] ، فقلنا له اقرأ : ﴿ أَلهاكم التكاثر ﴾ ، ورفع بها صوته ، فأشرف علينا الفضيل ، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع ، ومعه خِرْقَة ينشِّف بها الدموع من عينيه ، وأنشأ يقول :

بلغتُ الثمانينَ أو جُزتها فماذا أؤمِّلُ أو أنتظرْ
أتى لي ثمانون من مولدي وبعد الثمانينَ ما يُنتَظرْ
علَتْني السنونَ فأبلَيْنَني ....

قال : ثم خنقتْه العَبرة ، وكان معنا علي بن خشرم فأتمَّه لنا ، فقال :

علَتْني السنونَ فأبلَيْنَني فرقّتْ عظامي وكَلَّ البصرْ »[2]

الخشوعُ ينتظم جوارحَ العبدِ جميعًا :

كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة : « ... اللهمَّ لك ركعتُ ، وبك آمنتُ ، ولك أسلمتُ ، خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي وعصبي ... » .

عالي الهِمَّة في الخشوع : مَنِ اجتمعتْ فيه هٰذه الصِّفاتِ :

١ - الخوْفُ مِنَ اللهِ :

قال تعالى : ﴿ فإلٰهكم إلٰه واحد فله أسلِمُوا وبشِّرِ المخبتين الذين إذا

---

(١) أي : شديد الصوت .

(٢) صفة الصفوة ٢/٢٣٩ .

ذُكِر الله وَجِلتْ قلوبُهم ... ﴾ الآية [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

وقال تعالى : **﴿ اللهُ نزَّل أحسنَ الحديثِ كتابًا متشابهًا مثانيَ تقشعِرُّ منه جلودُ الذين يخشون ربَّهم ﴾** [الزمر : ٢٣] .

٢ - البكاءُ مِن خشيةِ الله :

قال تعالى : **﴿ قُلْ آمِنُوا به أو لا تؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلْمَ مِن قبله إذا يُتلى عليهم يخِرُّون للأذقان سُجَّدًا ويقولون سبحان ربِّنا إنْ كان وعْد ربِّنا لمفعولًا ويخِرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا ﴾** [الإسراء : ١٠٧] .

تهتزُّ المشاعر ، وتلين القلوب ، ولا تكفي الألفاظ في تصوير ما يجيش في صدورهم من إحساسِ عظمةِ الله ، فإذا الدموعُ تنطلقُ مُعبّرةً عن ذلك التأثُّر الغامر ، الذي تعجْز الألفاظ عن تصويره .

٣ - الصبر على ما أصابهم .
٤ - إقام الصلاة .
٥ - إيتاء الزكاة .

قال تعالى : **﴿ وبشِّر المخبتين الذين إذا ذُكِر الله وجِلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون ﴾** [الحج : ٣٤ - ٣٥].

٦ - اليقين بِلقَاءِ الله والرُّجوعِ إليه :

قال تعالى : **﴿ واستعينوا بالصبر والصلاةِ وإنها لَكَبيرةٌ إلّا على الخاشعين الذين يظنُّون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾** [البقرة : ٤٥ - ٤٦] .

٧ - تعظيمُ شعائر الله :

لن يعظِّم شعائر الله إلا خاشع لله ؛ لا يخطو خطوة ولا يتحرَّك حركة

إلَّا وهو ينظر فيها إلى الله ؛ فإنه إنْ لم يكن يراه فإن الله يراه ، فيَجِيش قلبه فيها بتقواه ، ويتطلع فيها إلى وجهه ورضاه .

قال تعالى : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤْمن بالله وما أنزل إليكم وما أُنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنًا قليلًا أولئك لهم أجرهم عند ربِّهم إن الله سريع الحساب** ﴾ [آل عمران : ١٩٩] .

الخُشوعُ في الصَّلاة :

قد شرع الله لعباده من العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان ، الناشئ عن خشوع القلب وذُلّه وانكساره ، ومن أعظم ذلك الصلاة ، حين تستشعر قلوبُ الصالحين رهبة المَوْقف في الصلاة بين يدي الله ، فتسكُن وتخشع ، فيسري الخشوع منها إلى الجوارح والملامح والحركات ، ويغشىٰ أرواحهم جلالُ اللهِ في حضْرته ، فتختفي من أذهانهم جميع الشواغل ، ولا تشتغل بسواه ، وهم مستغرقون في الشعور به ، مشغولون بنجواه ، ويتوارىٰ عن حِسِّهم كل ما حولهم وكل ما بهم ، فما يضمُّون جوانحهم على شائبة مع جلال الله .

قال ابن كثير في « تفسيره » (٥/٤٥٦) : « والخشوع في الصلاة إنما يحصل لمَن فرَّغ قلبه لها ، واشتغلَ بها عمَّا عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذٍ تكون راحةً له وقُرَّةَ عيْن ؛ كما قال النبي ﷺ ؛ في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن أنس ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حُبِّبَ إليَّ الطِّيبُ والنساءُ ، وجُعلتْ قرَّة عيني في الصلاة »[1] .

قال تعالى : ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ [المؤمنون : ٢] .

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : خائفون ساكنون . وهو قول مجاهد والحسن وقتادة والزهري .

---

(١) صحيح .

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الخشوعُ : خشوعُ القلب . وكذا قال إبراهيم النخعي .

قال ابن سيرين : كانوا يقولون : لا يجاوز بصرُه مصلّاه » .

« وعن سعيد بن جُبير رحمه الله: ﴿ **الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ يعني : متواضعين ؛ لا يعرف مَن عن يمينه ولا مَنْ عن شماله ، ولا يلتفت ؛ من الخشوع لله عزَّ وجلَّ .

وعن مجاهد : ﴿ **وقُومُوا لله قانتين** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] : قال : القنُوت : الركون والخشوع ، وغضُّ البصر وخفْض الصوت .

قال : وكان العلماء إذا قام أحدهم في الصلاة ، هابَ الرحمٰن عزّ وجلَّ عنْ أن يشذَّ نظرُه أو يلتفت ، أو يقلِّب الحصىٰ أو يعبث بشيءٍ ، أو يُحدِّث نفسه من أمر الدنيا إلّا ناسيًا ، ما دام في صلاته .

وعن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ **سِيمَاهم في وُجوههم من أثر السجود** ﴾ [الفتح : ٢٩] ؛ قال : الخشوع في الصلاة »(١) .

ولله درُّ القائل :

أَلَا في الصلاةِ الخيرُ والفضلُ أجمعُ ... لأنَّ بها الآرابَ للهِ تخضعُ
وأوَّلُ فرْضٍ من شريعةِ ديننا ... وآخر ما يبقىٰ إذا الدين يُرفَعُ
فمَن قامَ للتكْبيرِ لاقته رحمة ... وكان كعبدٍ بابَ مولاهُ يقْرَعُ
وصارَ لربِّ العرشِ حينَ صلاتِهِ ... نجيًّا فيا طُوباه لو كان يخشعُ

والخشوع واجب في الصلاة ، وهذا أرجح الأقوال :

قال القرطبي : « اختلف الناسُ في الخشوع : هل هو من فرائض الصلاة ، أو مِنْ فضائلها ومكمِّلاتها ؟ على قولَيْن ؛ والصحيح : الأول ، ومحلُّه القلب » .

---

(١) الخشوع في الصلاة لابن رجب ص٢٢ ، ٢٣ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « قال الله تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾ [البقرة : ٤٥] . وقال تعالى : ﴿ **كَبُرَ على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ [الشورى : ١٣] .

فقد دلَّ كتاب الله - عز وجل - على مَن كَبُر عليه ما يحبُّه الله ، وأنه مذموم بذلك في الدين ، مسخوط منه ذلك . والذمُّ والسُّخط لا يكون إلّا لترْك واجب أو فعْل محرَّم . وإذا كان غير الخاشعين مذمومين ؛ دلَّ ذلك على وجوب الخشوع .

ويدلُّ على وجوب الخشوع في الصلاة : أن النبي ﷺ توعَّد تاركيه ؛ كالذي يرفع بصره إلى السماء ، فإنه حرَّكه ورفعه ، وهو ضدُّ حال الخاشع .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما بالُ أقوامٍ يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم ؟! » . فاشتدَّ قولهُ في ذلك ، فقال : « لينتهُنَّ عن ذلك أو لتخطَفَنَّ أبصارهم »[(١)] .

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ المسجد ، وفيه ناس يُصلُّون رافعي أبصارهم إلى السماء ، فقال : « لينتهِيَنَّ رجالٌ يَشْخَصون أبصارهم إلى السماء، أو لا ترجع إليهم أبصارهم »[(٢)]. اهـ»[(٣)] باختصار.

وذهب إلى الوجوب أيضًا : الحافظُ العراقي في كتابه القيم « طَرْح التثريب في شرح التقريب » ، في ردِّه على النووي[(٤)].

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه مسلم .

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/٥٥٣ - ٥٧٢ .

(٤) طرح التثريب في شرح التقريب للعراقي ٢/٣٧٢ .

« لو ترك العبد واجبًا مِن واجبات الصلاة عمدًا ، لَأَبطَلَها تَرْكُه . وغايتُه أن يكون بعضًا من أبعاضها ، بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المُعْتَق في الكفَّارة، فكيف إذا عدمت رُوحها ولبّها ومقصودها (الخشوع)، ؟! وصارت بمنزلة العبد الميِّت ؟! إذا لم يُعتدَّ بالعبد المقطوع اليد بعتْقِه تقرُّبًا إلى الله تعالى في كفَّارة واجبة ؛ فكيف يُعتدُّ بالعبد الميت ؟! .

وقال بعض السلف : الصلاة كجاريةٍ تهدَىٰ إلى مَلِك من الملوك ، فما الظنُّ بمَن يُهدي إليه جارية شلَّاء أو عوراء أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرجل أو مريضة ، أو دميمة أو قبيحة ، حتى يُهدي إليه جارية ميتة بلا روح ، وجارية قبيحة ، فكيف بالصلاة التي يُهديها العبد ، ويتقرَّب بها إلى ربه تعالى ؟! والله طيِّب لا يقبل إلّا طيِّبًا ؛ وليس من العمل الطيِّب : صلاة لا روح فيها ، كما أنه ليس من العِتْق الطيِّب : عتْق عبد لا روح فيه .

وتعطيلُ القلب عن عبودية الحضور والخشوع : تعطيلٌ لمَلِك الأعضاء عن عبوديته ، وعزْلٌ له منها . فماذا تعني طاعة الرعيَّة وعبوديتها ، وقد عُزِل مالكُها وتعطَّل ؟! »[1] .

وعالي الهِمَّة في خُشوعه في صلاته يظهر ذلك منه في أفعال الصلاة :

١ - وضْعُ اليمين على الشمال في حال القيام :

قال العلّامة ابن رجب الحنبلي : « وممَّا يظهر فيه الخشوع والذلُّ والانكسار من أفعال الصلاة : وضْع اليديْن إحداهما على الأخرى في حال القيام ، وقد رُوي عن الإمام أحمد رحمه الله : أنه سُئل عن المراد بذلك ، فقال : هو ذلٌّ بين يدَيْ عزيز .

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٦ - ٥٢٧ .

قال علي بن محمد المصري الواعظ رحمه الله تعالى : ما سمعتُ في العلم بأحسن من هذا : عن أبي صالح السمَّان رحمه الله تعالى قال : يُبعَث الناس يوم القيامة هكذا . ووضع إحدى يديْه على الأخرى .

وملاحظة هذا المعنى في الصلاة يُوجب للمصلِّي أن يتذكَّر وُقوفَه بين يدي الله تعالى للحساب .

وكان ذو النون - رحمه الله تعالى - يقول في وصْف العُبَّاد : لو رأيتَ أحدَهم وقد قام إلى صلاته ، فلمّا وقف في محرابه[1] ، واستفتح كلام سيده ؛ خطر على قلبه أن ذلك المقام هو المقام الذي يقوم الناس فيه لربِّ العالمين ، فانخلَع قلبه وذهل عقله »[2] .

٢ - إقبالُ المصلّي عالي الهِمَّة على الله - عز وجل - وعدم التْفاته :

قال ابن رجب : (ومِن ذلك إقباله على الله عز وجلّ وعدم التفاته إلى غيره ؛ وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفريغ القلب للربّ عز وجل .

عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ؛ أنه قال في فضل الوضوء وثوابه ، ثم قال : « فإنْ هو قام وصلّى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بالذي هو أهلُه ، وفرّغ قلبه لله ؛ انصرف من خطيئته كيوم ولدتْه

---

(١) قال الأخ علي حسن عبد الحميد الحلبي : « أي : موضع صلاته ، وليس المحراب المعروف اليوم ، وهو التجويف الذي يكون في الحائط ، فقد نصَّ العلماء على أنه بدْعة مُحدَثة ، وللإمام السيوطي رحمه الله رسالة : إعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب » . اهـ . من : التعليق على « الخشوع في الصلاة » ص٢٤ .

(٢) الخشوع في الصلاة ص٢٣ - ٢٤ .

أُمُّه »(1) .

الثاني : عدم الالتفات بالنظر يمينًا وشمالًا ، وقصْر البصَر على موضع السجود ، وهو من لوازم خشوع القلب وعدم التفاته .

عن عائشة رضي الله عنها : سألتُ النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »(2))(3) .

قال ابن قيم الجوزية : « قوله في الحديث : « ... وآمركم بالصلاة ، فإذا صلَّيتم ، فلا تلتفتوا ؛ فإن الله ينصب وجهَهُ لوجه عبده في صلاته ، ما لم يلتفت »(4)؛ والالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان :

أحدهما : التفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غير الله تعالى .

والثاني : التفاتُ البصر .

وكلاهما منهيٌّ عنه .

ولا يزال الله مقبِلًا على عبده ما دام العبد مقبلًا على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصَره ؛ أعرض الله - تعالى - عنه ... ومَثَلُ مَن يلتفت في صلاته ببصره أو قلبه : مَثَلُ رجل قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه ، وأقبل يُناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفتُ يمينًا وشمالًا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ؛ لأنَّ قلبَه ليس حاضرًا معه . فما ظنُّ هذا

---

(1) رواه مسلم .

(2) رواه البخاري .

(3) الخشوع في الصلاة ص٢٤ .

(4) صحيح . جزء من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ : « أن الله أمَر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات .... » الحديث . رواه أحمد والترمذي والطيالسي ، وهو صحيح .

الرجل أنْ يفعل به السلطان ؟! أفليس أقلّ المراتب في حقّه أن ينصرف مِن بين يديه ممقوتًا مُبْعَدًا، قد سقط من عينيه ؟! فهذا المصلّي لا يستوي والحاضر القلبِ ، المقبل على الله تعالى في صلاته ، الذي قد أشعر قلبه عظمةَ مَن هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلّتْ عنقه له ، واسْتحْيا من ربِّه تعالى أن يُقبل على غيرِه أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما ؛ كما قال حسَّان ابن عطية : « إن الرجلَيْن ليكونان في الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما في الفضْل كما بين السماء والأرض » . وذلك أن أحدَهُما مقبلٌ بقلبه على الله - عز وجل - والآخر ساهٍ غافل .

فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب ؛ لم يكن إقبالًا ولا تقريبًا ، فما الظنُّ بالخالقِ عز وجل ؟! وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها - فكيف يكون ذلك إقبالًا وقد ألهتْه الوساوس والأفكار، وذهبتْ به كلَّ مذهب ؟!

فإن الصلاة إنما تكفِّر سَيئات مَن أدَّى حقَّها ، وأكمل خشوعها ، ووقَفَ بين يدي الله تعالى بقلبه وقالَبه . فهذا ، إذا انصرف منها ؛ وجد خِفَّة من نفسه ، وأحسَّ بأثقال قد وُضعت عنه ، فوجد نشاطًا وراحة ورَوْحًا ، حتى يتمنَّى أنه لم يكن خرج منها ؛ لأنها قرَّة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنَّة قلبه ، ومستراحه في الدنيا ، فلا يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها لا منها . فالمحبون يقولون : نصلّي فنستريح بصلاتنا . كما قال إمامهم وقدوتُهم ونبيهم ﷺ : « يا بلال ، أرحْنا بالصلاة » ، ولم يقل : أرحنا منها . وقال ﷺ : « جُعلت قرّة عيني في الصلاة » . فمن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة ؛ كيف تقرُّ عينه ﷺ بدونها ؟! وكيف يُطيق الصبر عنها ؟!

فصلاة هذا الحاضر بقلبه ، الذي قرَّة عينه في الصلاة ، هي التي تصعد

ولها نور وبرهان ، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل ...

والصلاة المقبولة أن يصلِّي العبد وقلبه متعلِّق بالله عز وجل، ذاكرًا لله عز وجل على الدوام . فأعمال هذا العبد تُعرَض على الله عز وجل حتى تقف قبالتَهُ ، فينظر الله عز وجل إليها ، فإذا نظر إليها ، رآها خالصةً لوجهه مرضيَّة ، وقد صدرت عن قلب سليم مخلص محبٍّ لله عز وجل متقرِّب إليه - أحبَّها ورضيها وقبلها .

وإثابته : رضا الله العمل لنفسه ، ورضاه عن معاملة عامِلِه ، وتقريبه منه ، وإعلاء درجته ومنزلته ؛ فهذا يُعطيه بغير حساب .

والناس في الصلاة على مراتبَ خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه ، المفرِّط ؛ وهو الذي انتقص من وضوئها ، ومواقيتها ، وحدودها وأركانها .

الثاني : مَن يحافظ على مواقيتها وحدودها ، وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيَّع مجاهدة نفسه في الوسوسة ، فذهب مع الوساوس والأفكار .

الثالث : مَن حافظ على حدودها وأركانها ، وجاهَد نفسه في دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوِّه ؛ لئلَّا يسرق صلاته ؛ فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : مَن إذا قام إلى الصلاة أكْمَل حقوقها ، وأركانها ، وحدودها ، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها ، لئلَّا يضيِّع شيئًا منها ، بل هَمُّه كلُّه مصروف إلى إقامتها كما ينبغي ، وإكمالها وإتمامها . قد استغرقَ قلبَهُ شأنُ الصلاة وعبوديةُ ربِّه - تبارك وتعالى - فيها .

الخامس : مَن إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ، ولكن مع هذا قد أخذ قلبَه ووضَعه بين يدي ربِّه عز وجل ، ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا مِن محبَّته وعظمته ، كأنه يراه ويشاهده ، وقد اضمحلَّت تلك الوساوس

والخطرات ، وارتفعت حُجُبُها بينه وبين ربه . فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضلُ وأعظم ممَّا بين السماء والأرض . وهذا في صلاته مشغولٌ بربِّه عز وجل ، قرير العيْن به .

فالقسم الأول مُعاقَب ، والثاني محاسَب ، والثالث مكفَّرٌ عنه ، والرابع مثاب ، والخامس مقرَّب من ربه ؛ لأنَّ له نصيبًا ممن جُعلت قرَّة عينه في الصلاة . فمن قرَّت عينه بصلاته في الدنيا ، قرَّت عينه بقرْبه من ربه - عز وجل - في الآخرة ، وقرَّت عينه أيضًا به في الدنيا ، ومَن قرَّت عيْنه بالله ؛ قرَّت به كلُّ عيْن ومَن لم تقرَّ عينه بالله تعالى ، تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات »[(١)] .

٣ - الركوع :

ومن الهيئات التي يظهر فيها الخشوع : الركوع .

قال ابن رجب : « ومن ذلك : الركوع ؛ وهو ذلٌّ بظاهر الجسد . ولهذا كانت العرب تأنف منه ولا تفعله ؛ حين بايَع بعضُهم النبي ﷺ أن لا يَخِرّ إلَّا قائمًا[(٢)]؛ يعني يسجد من غير ركوع ، كذلك فسَّره الإمام أحمد رحمه الله تعالى والمحقِّقون من العلماء .

وتمام الخضوع في الركوع : أن يخضع القلب لله ويذلَّ له ، فيتمّ بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله عز وجل ، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه: «خشع لك سمعي وبصري ومخِّي وعظمي، وما استقلَّت به قدمي»[(٣)] . إشارة إلى أن خشوعه في ركوعه قد حصل بجميع جوارحه، ومن أعظمها القلب

(١) الوابل الصيب لابن قيم الجوزية ص٢٥ - ٢٩ . بتصرُّف .

(٢) وهو حكيم بن حزام ؛ أخرجه النسائي عنه بسندٍ حسن ، والطبراني في الكبير ، والطحاوي في مشكل الآثار .

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم .

الذي هو مَلِك الجوارح ، والأعضاء كلها تبَع له ولخشوعه »[(١)] .

٤ - السُّجُود :

« ومن ذلك : السجود ؛ وهو أعظم ما يظهر فيه ذُل العبد لربه عز وجل؛ حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزَّها عليه وأعلاها عليه حقيقةً - أوضعَ ما يُمكنه ، فيضعه في التراب مُتعفِّرًا ، ويتْبع ذلك انكسار القلب وتواضعه وخشوعه لله عز وجل »[(٢)] .

٥ - وصْفُ اللهِ بصفات الكمال ونُعوت الجلال :

« ومِن تمام خشوع العبد لله عز وجلَّ وتواضعه له في ركوعه وسجوده : أنه إذا ذلّ لربه بالركوع والسجود وصَفَ ربَّه حينئذٍ بصفات العِزِّ والكبرياء والعظمة والعلوّ ، فكأنه يقول : الذلُّ والتواضع وصْفي ، والعلوُّ والعظمة والكِبْرياء وصفُك »[(٣)] .

قال الحسن رحمه الله : « إذا قمتَ إلى الصلاة قانتًا ؛ فقمْ كما أمَرك الله ، وإيَّاك والسهوَ والالتفاتَ . إيَّاك أن ينظر الله إليك وتنظر إلى غيره ، وتسأل الله الجنة وتعوذ به من النار ، وقلبُك ساهٍ لا تدري ما تقولُ بلسانك »[(٤)] .

عالي الهمَّة الخاشِع في صلاته يذكر الموت فيها :

قال رسول الله ﷺ : « اذكرِ الموت في صلاتك ؛ فإن الرجل إذا ذكر الموت في صلاته ، لَحريٌّ أن يُحسن صلاته . وصلِّ صلاة رجل لا يظن أنه يصلي صلاة غيرها ، وإياك وكلَّ أمر يُعْتَذر منه »[(٥)].

---

(١)، (٢)، (٣) الخشوع في الصلاة ص٢٦ - ٢٨ .

(٤) الخشوع في الصلاة ص٢٩ .

(٥) إسناده حسن : أخرجه الديلمي في مسند الفردوس . عن أنس مرفوعًا .

وقال ﷺ : « إذا قمتَ في صلاتك ، فصلِّ صلاة مودِّعٍ ، ولا تتكلَّمْ بكلام تعتذر منه ، وأجْمِعِ اليأسَ عمَّا في أيدي الناس »[(١)].

سادات الخاشعين في صلواتهم :

مرّ بك من قبل في « علو الهمة في الصلاة » : صلاةُ سادات الخاشعين ، ومنهم : عبد الله بن الزبير ، وعامر بن عبد قيس ، وزاذان ، وعلي زيْن العابدين ، ومسلم بن يسار ، وإبراهيم التيمي ، وعاصم بن أبي النجود ، والأوزاعي ، ووكيع بن الجراح ، ويزيد بن هارون ، ويعقوب الحضرمي ، والبخاري ، ومحمد بن نصر المروزي . وغيرهم .

« كان خلف بن أيُّوب لا يطردِ الذباب عن وجهه في الصلاة ، فقيل له : كيف تصبر ؟ قال : بلغني أن الفُسَّاق يتصبَّرون تحتَ السِّياط ليُقال : فلان صبور ؛ وأنا بين يدَي ربي ، أفلا أصبر على ذباب يقع عليّ ؟! »[(٢)].

فيا مصيبتاه على ترْك الخشوع :

« قال حاتم الأصمُّ : فاتتني صلاة الجماعة ، فعزّاني أبو إسحاق البخاري وحده ، ولو مات لي ولد لعزَّاني أكثر مِنْ عشرة آلاف ؛ لأن مصيبة الدين عندهم أهون من مصيبة الدنيا »[(٣)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه ، وأحمد ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » عن أبي أيوب . وللحديث شواهد تدل بمجموعها على ثبوته : حديث عبد الله بن عمر عند الضياء ، وحديث سعد بن أبي وقَّاص عند الحاكم ، وحديث أنس السابق في « مسند الفردوس » .

(٢) المستطرف ١/٧ .

(٣) المستطرف ١/٨ .

الخشوع عند سمَاع القرآن والعِلْم :

العلـم النافع هو ما باشر القلوب ، فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك العِلْمُ وإنما كان على اللسان، فهو حجَّة لله على ابن آدم تقوم على صاحبه وغيره ؛ كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: أن أقوامًا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم .

ولكن إذا وقع في القلب يرسخ فيه نفع صاحبه . وقال الحسن رحمه الله تعالى : العلم علمان : علم باللسان وعلم بالقلب ؛ فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجَّة الله على ابن آدم .

قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ** ﴾ [فاطر : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ **أمَّن هو قانتٌ آناءَ الليل ساجدًا وقائمًا يحذرُ الآخرة ويرجو رحمة ربِّه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكَّر أولو الألباب** ﴾ [الزمر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ **فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلالٍ مبين اللهُ نزَّل أحسن الحديثِ كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربَّهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكْر الله ...** ﴾ الآية [الزمر : ٢٢ - ٢٣] .

وقال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لَرأيته خاشعًا متصدِّعًا من خشية الله ...** ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

قال أبو عمران الجَوْني : والله ، لقد صرف إلينا ربُّنا في هذا القرآن ما لو صرفه إلى الجبال لمحاها ودحاها .

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقرأ هذه الآية ثم يقول : أُقسم لكم ، لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صُدِّع قلبه .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدَّثتَ

بها نفسك ؛ فاذكر عند ذلك ما حمّلك الله من كتابه ، ممَّا لو حملتْه الجبالُ الرواسي لخَشَعتْ وتصدَّعْت ، أما سمعتَه يقول : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** ... ﴾ الآية [الحشر : ٢١] .

الخشُوع في الدعاء :

« من أنواع العبادات التي يظهر فيها الذلُّ والخضوع لله عز وجل : الدعاءُ ؛ قال تعالى : ﴿ **ادعوا ربكم تضرُّعًا وخُفية** ﴾ [الأعراف : ٥٥] ، وقال تعالى : ﴿ **إنهم كانوا يُسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَبًا ورهَبًا وكانوا لنا خاشعين** ﴾ [الأنبياء : ٩٠] .

فمما يظهر فيه من الذلِّ : رفْعُ اليدين . وقد صحَّ عن النبي ﷺ رفعُ يديْه في الدعاء في مواطن كثيرة ، وأعظمها في الاستسقاء ؛ فإنه كان يرفع يديه حتى يُرىٰ بَيَاضُ إبطيه .

وقد كان بعضُ الخائفين يجلس بالليلِ ساكنًا مُطْرِقًا برأسه ، ويمدُّ يديْه كحال السائل ، وهذا من أبلغ صفات الذلِّ ، وإظهار المسكنة والافتقار .

ومنه : افتقار القلب في الدعاء وانكساره لله عز وجل ، واستشعاره شدَّة الفاقة إليه والحاجة لديه ، وعلى قدْر الحُرْقة والفاقة تكون إجابة الدعاء .

ومن ذلك : إظهار الذلّ باللسان في نفس السؤال والدعاء ، والإلحاح فيه ؛ قال الأوزاعي رحمه الله تعالى : كان يُقال : أفضل الدعاء : الإلحاح على الله والتضرُّع إليه .

وقال **طاووس رحمه الله تعالى** : **دخل علي بن الحسين رحمه الله تعالى** ذاتَ ليلة الحُجرة فصلّى ، فسمعتُه يقول في سجوده : **عبدُك بفنائك ، فقيرك بفنائك** ، **مسكينك بفنائك** . قال طاووس : **فحفظتُهنَّ ، فما دعوتُ بهنَّ في كرْب إلا فُرِّج عني** .

وقال ابن باكَوَيْه **رحمه الله تعالى** : إن بعضَ العُبَّاد حجَّ ثمانين حَجَّة على

قدميْه ، فبينما هو في الطواف وهو يقول : يا حبيبي ؛ وإذا بهاتف يهتف : أليس ترضى أن تكون مسكينًا حتى تكون حبيبًا ؟ قال : فغُشي عليّ ، ثم كنتُ بعد ذلك أقول : مسكينُك ؛ وأنا تائب عن قولي : حبيبي .

فالدعاء تضرُّع وتذلُّل وخشوع وتمسكُن وانكسار .

ولله ما أحلىٰ قوْل القائل : اسألك بعزِّك وذلِّي إلا رحمتَني . أسألك بقوَّتك وضعْفي ، وبغناك عني وفقْري إليك . هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك . عبيدك سواي كثير ، وليس لي سيِّد سواك . لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك . أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعتْ لك رقبتُه ، ورَغِم لك أنفُه ، وفاضت لك عيناه ، وذلَّ لك قلبه .

يا من ألوذ به فيما أؤمِّلهُ ومَن أعوذ به ممَّا أحاذرهُ
لا يجبر الناسُ عظمًا أنتَ كاسِرُهُ ولا يهيضون عظمًا أنت جابره »[1]

هكذا يكون دعاءُ الخاشِع ، وإلّا فكما قال سيد البشر ﷺ : « ادعوا الله وأنتم مُوقنون بالإجابة، واعلموا أنَّ الله لا يستجيب دعاءً مِن قلبٍ غافل لاهٍ »[2] .

عالي الهِمَّة مَنِ استوفىٰ دَرَجاتِ الخشوع :

وعالي الهمَّة مَن كملتْ فيه درَجات الخشوع واستوفاها ؛ وهي :

١ - وَجَلُ القلب :

إنها الارتعاشة التي تنتاب القلب الخاشع الموصول بالله ، فتغشاه جلالته ،

---

(١) مدارج السالكين ١/١٨٧ .

(٢) حسن بشواهده : رواه الترمذي ، والحاكم عن أبي هريرة ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٤٥ ، والصحيحة رقم ٥٦٤ .

وتتمثَّل عظمة الله ومهابته إلى جانب تقصيره وذنبه . قال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الأنفال : ٢] . وقال تعالى : ﴿ **وبشِّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وَجِلت قلوبهم** ﴾ [الحج : ٣٤ - ٣٥] .

٢ - قشعريرة الجلْد :

ثم تسري هذه الشحنة الإيمانية في الجسَد المؤمن ، فيقشعرُّ جلده ؛ قال تعالى : ﴿ **اللهُ نزَّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعرُّ منه جلود الذين يخشون ربهم** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٣ - البكاء :

ثم تفيض أعينهم بالدمع ؛ قال تعالى : ﴿ **وإذا سمِعُوا ما أُنزِل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ...** ﴾ الآية [المائدة : ٨٣] . وقال عز وجل : ﴿ **ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾ [الإسراء : ١٠٩] .

٤ - لِينُ القلب والجلْد جميعًا :

ويتزوَّد الخاشع ببرد اليقين ، ويُحس بثلج الإيمان ؛ قال تعالى : ﴿ **اللهُ نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلينُ جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدىٰ الله يهدي به مَن يشاء ومَن يضلل الله فما له من هادٍ** ﴾ [الزمر : ٢٣] .

٥ - السَّكِينة :

وهي الوقار والسكون الذي يُنزله الله في قلب عبده عند اضطرابه من شدَّة المخاوف ، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه ، ويُوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات . والسكينة إذا نزلت على القلب ؛ سكن بها وخشعت

إليها الجوارح ، واكتسبتِ الوقار ، ولذلك فهي تجمع قوة وروحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر ، فإذا باشرتْ قلبه ؛ سكَّنتْ خوفه ، وسلّتْ حزنه ؛ فإنها لا حزن معها ، فهي سلوة المحزون ، ومُذهِبَةُ الهموم والغموم ، وكذلك أذهبتْ وَخْمَ ضجرِه ، وبعثت نشوة العزم .

ولهذا أخبر سبحانه عن إنزالها على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب .

كيوم الهجرة ؛ إذ هو وصاحبه في الغار ، والعدوُّ فوق رؤوسهم ، لو نظر أحدهم إلى ما تحت قدميْه ، رآهما ؛ قال تعالى : ﴿ **إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيَّده بجنودٍ لم تروها** ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكيوم الحديبية ؛ حين اضطربت قلوبهم من تحكُّم الكفَّار عليهم ، ودخولهم تحت شروطهم التي لا تحملها النفوس . وحسبك بضعْف عمر رضي الله عنه عن حملها - وهو عمر - حتى ثبَّته الله بالصدِّيق رضي الله عنه . قال تعالى : ﴿ **لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحًا قريبًا** ﴾ [الفتح : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ **إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين** ﴾ [الفتح : ٢٦] .

وكيوم حُنَيْن ؛ حين ولَّوا مدبرين من شدَّة بأس الكفار ، لا يلوي أحدٌ منهم على أحد ، قال تعالى : ﴿ **لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة ويوم حُنينٍ إذ أعجبتْكم كثرتكم فلم تغنِ عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحُبَتْ ثم ولَّيتم مُدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذَّب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ [التوبة : ٢٥ - ٢٦] .

وقال تعالى : ﴿ **هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا**

إيمانًا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا ﴾
[الفتح : ٤] .

قال ابن عباس : كل سكينة في القرآن فهي طمأنينة ، إلَّا التي في سورة البقرة .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال : رأيتُ النبي ﷺ ينقل من تراب الخندق ، حتى وارىٰ الترابُ جلدةَ بطْنِه ، وهو يرتجز بكلمة عبد الله ابن رواحة رضي الله عنه :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّيْنا
فأنزلنْ سكينةً علينا ... وثبِّتِ الأقدامَ إن لاقَيْنا
إنَّ الأُلىٰ قدْ بغوْا علينا ... وإن أرادوا فتنةً أبيْنا(١)

وفي صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة : « إني باعثٌ نبيًّا أُمِّيًّا ، ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخَّاب في الأسواق ، ولا متزيِّن بالفحْش ، ولا قوّال للخنا . أُسدِّده لكل جميل ، وأهبُ له كلَّ خلُقٍ كريم ، ثم أجعل السكينة لباسَه ، والبرَّ شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة معقوله ، والصدقَ والوفاء طبيعته ، والعفوَ والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحقَّ شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملَّته ، و « أحمدَ » : اسمَه »(٢) .

قال الهروي عن هذه السكينة : « هي التي نزلت على قلبِ النبي ﷺ وقلوب المؤمنين ، وهي شيءٌ يجمع قوَّةً ورُوحًا ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلَّى به الحزين والضَّجِر ، ويسكن إليه العَصِيُّ والجريء والأبيُّ »(٣) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم .
(٢) مدارج السالكين ٢/٥٠٤ .
(٣) مدارج السالكين ٢/٥٠٧ .

قال ابن القيم شارحًا : « هذا من عيون كلامه وغرره الذي تُثنَى عليه الخناصر ، وتُعقد عليه القلوب ، وتظفر به عن ذوقٍ تامٍّ .

فذكر أن هذا الشيء الذي أنزله الله في قلب رسوله ﷺ وقلوب عباده المؤمنين ، يشتمل على ثلاثة معانٍ : النور ، والقوة ، والروح .

وذكر له ثلاث ثمرات : سكون الخائف إليه ، وتسلّي الحزين والضَّجِر به ، واستكانة صاحب المعصية والجرأة على المخالفة والإباء إليه .

فبالروح الذي فيها : حياة القلب . وبالنور الذي فيها : استنارته وضياؤه وإشراقه . وبالقوة : ثباته وعزمه ونشاطه .

فالنور : يكشف له عن دلائل الإيمان وحقائق اليقين ، ويميز له بين الحقِّ والباطل ، والهدى والضلال ، والغيِّ والرشد ، والشك واليقين .

والحياة : تُوجب كمال يقظته وفِطنته ، وحضوره وانتباهه من سِنَة الغفلة ، وتأهُّبه للقائه .

والقوة : توجب له الصدق ، وصحَّة المعرفة ، وقهْر داعي الغيّ والعنَت ، وضبْط النفس عن جَزَعها وهلعها، واسترسالها في النقائص والعيوب. ولذلك ازداد بالسكينة إيمانًا مع إيمانه .

والإيمان : يُثمر له النور والحياة والقوة . وهذه الثلاثة تثمره أيضًا وتُوجب زيادته ، فهو محفوف بها قبلها وبعدها .

فبالنور : يكشف دلائل الإيمان . وبالحياة : ينتبه من سِنَة الغفلة ، ويصير يقظانًا . وبالقوة : يقهر الهوىٰ والنفس والشيطان » .

وتلكَ مواهبُ الرحمٰن ليستْ تُحصَّلُ باجتهادٍ أو بكسْبِ
ولكنْ لا غِنىٰ عنْ بذْلِ جهدٍ بإخلاصٍ وجدّ لا بلعبِ
وفضْلُ اللهِ مبذولٌ ولكنْ بحكمتِهِ وعن ذا النصِّ يُنْبي

فما من حكمةِ الرحمٰن وضْعُ الْـ كواكبِ بينِ أحجارٍ وتُـرْبِ
فشـكرًا للـذي أعطـاك منـهُ فلو قَبِـلَ المَحَلُّ لَـزَاد ربـي

سَكِينة الوقارِ والخُشوع :

أَنْزَلَها الله في قلـوب أهلها ونعتَهمْ بها . وهي ضياء تلك السكينة التي ذكرناها وثمرتُها،وعنها نشأت . ولما كان النور والحياة والقوة مما يُثمر الوقار ، كانـت سكينة الوقار كالضياء لتلك السكينة ؛ إذ هو علامة حصولها ، ودليل عليها كدلالة الضياء على حامله .

قال الهروي عن سكينة الوقار : « وهي على ثلاث درجات : الدرجة الأولى : سكينة الخشوع عند القيام للخدمة ؛ رعايةً وتعظيمًا وحضورًا » .

قال الإمام ابن قيـم الجـوزية : « يريد به الوقار والخشوع الذي يحصل لصاحب مقام الإحسان .

ولمّا كان الإيمان موجِبًا للخشوع وداعيًا إليه قال الله تعالى : ﴿ **ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكْر الله وما نزل من الحقّ** ﴾ [الحديد : ١٦] ، دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان ؛ يعني : أمَا آنَ لهم أن يصلُوا إلى الإحسان بالإيمان ؟! وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكْره الذي أنزله إليهم .

وهذه ثلاثة أمور تحقِّق الخشوع في الخدمة ؛ وهيَ :

الأول : رعاية حقوقها الظاهرة والباطنة ؛ فليس يضيِّعها خشوع ولا وقار .

الثاني : تعظيم الخدمة وإجلالها ؛ وذلك تَبَعٌ لتعظيم المعبود وإجلاله ووقاره ؛ فعلى قدْر تعْظيمه في قلب العبد وإجلاله ووقاره ، يكون تعظيمه لخدمته وإجلاله ورعايته لها .

والثالث : الحضور : وهو إحضار القلب فيها ومشاهدة المعبود كأنه يراه .

فهذه الثلاثة تُثمر له « سكينة الوقار » . والله سبحانه أعلم »[1] .

٦ - الإخبات :

وقد أفردنا له فصلًا سابقًا .

٧ - الطمأنينة :

« وهي نهاية الإخبات ، ولذلك فهي سكونُ القلب والنفْس مع قوَّة الأمن الصحيح الذي لا يكون أمنَ غرور ؛ لأن الغرور قد ينزل القلب والنفْس ، ولكن هيهات أن تطمئنَّ به النفس أو يطمئنَّ به القلب ؛ لأنه سرعانَ ما يتركه ، ولكن الطمأنينة لا تفارق صاحبها ؛ لأنه في مقام الرجوع إلى الله ، حيث لا يبقى معه شيء من مخاوف الظنون والأوهام ، وكأنه ينظر إليه نظر العيْن ، فيأمن به اضطرابَ قلبه وقلق نفسه ؛ قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكْر الله ألَا بذكر الله تطمئنُّ القلوب** ﴾ [الرعد : ٢٨] . وقال جلَّ شأنه : ﴿ **يا أيَّتها النفسُ المطمئنَّة ارجعي إلى ربِّكِ راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخلي جنَّتي** ﴾ [الفجر : ٢٧ - ٣٠] .

وفي هذا دليل أن الطمأنينة طريق الرجوع إلى الله ؛ فإن النفس لا ترجع إلى ربِّها ، إلّا إذا كانت مطمئنة ، فهناك ترجع إليه ، وتدخل في عباده الآمِنِين الذين لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون . وهكذا يتبيّن لك أيُّها العبد الخاشع الراجع إلى ربِّه ؛ أن الخشوع سبعُ درجات طباقًا ، مَنِ ارتقى فيها بسُلَّم الإخلاص ، وتوكَّأ على عصا الاتِّباع - ورَدَ مَعِينَ الفلاح »[2] .

درجات الخشوع عند الهروي :

قال شيخ الإسلام الهروي : « وهو على ثلاث درجات :

---

(١) مدارج السالكين ٢/٥٠٩ - ٥١٠ بتصرف .

(٢) الخشوع لسليم الهلالي ص٦١ - دار ابن الجوزي .

الدرجة الأولى : التذلُّل للأمْر ،والاسْتسْلام للحكْم، والاتِّضاعُ لنظَرِ الحقِّ»:

قال شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية : « **التذلُّل للأمر** : تلقِّيه بذِلّةِ القبول ، والانقياد والامتثال ، ومواطأة الظاهر الباطن ؛ معَ إظهارِ الضعْف ، والافتقار إلىٰ الهداية للأمر قبل الفعْل ، والإعانة عليه حالَ الفعْل ، وقبوله بعد الفعْل .

وأمّا الاستسلام للحكم : فيجوز أن يريد به : الحكم الديني الشرعي ؛ فيكون معناه : عدم معارضته برأي أو شهوةٍ . ويجوز أن يريد به : الاستسلام للحكم القدري ، وهو عدم تلقِّيه بالتسخُّط والكراهة والاعتراض .

والحق : أن « الخشوع » هو الاستسلام للحكمين ، وهو الانقياد بالمسكنة والذلّ لأمْر الله وقضائه .

وأمَّا الاتضاع لنظَر الحقِّ : فهو اتضاع القلب والجوارح ، وانكسارها لنظر الربِّ إليها ، واطِّلاعه على تفاصيل ما في القلب والجوارح .

وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربِّه جنّتان** ﴾ [الرحمن : ٤٦] ، وقوله : ﴿ **وأمَّا مَن خاف مقامَ ربِّه ونهى النفْسَ عن الهوىٰ** ﴾ [النازعات : ٤٠] . وهو مقام الربِّ على عبيده بالاطلاع والقُدْرة والربوبية .

فخوفه من هذا المقام يُوجب له خشوع القلب لا محالة ، وكلَّما كان أشدَّ استحضارًا له ، كان أشدَّ خشوعًا . وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطِّلاع الله عليه ، ونظره إليه .

والتأويل الثاني : أنه مقام العبد بين يدي ربِّه عند لقائه .

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل .

وعلى الثاني - وهو أليق بالآية -: يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف . والله أعلم »[1].

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٢ - ٥٢٣ .

« الدرجة الثانية : ترقُّبُ آفات النفس والعمَل ، ورُؤية فضْلِ كلِّ ذي فضْلٍ عليك » :

قال ابن القيم : « يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعمَلِك وعيوبهما لك ؛ فإنه يجعل القلب خاشعًا لا محالة لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما ؛ من الكبْر والعجب ، والرياء وضعْف الصدق ، وقلَّة اليقين وتشتُّت النيّة ، وعدم تجرُّد الباعث من الهوىٰ النفْساني ، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذي ترضاه لربِّك ، وغير ذلك من عُيوب النفْس ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضْل كلِّ ذي فضْل عليك : فهو أن تراعي حقوق الناس فتؤدِّيها ، ولا ترىٰ أنَّ ما فعلوه : من حقوقك عليهم : فلا تعاوضهم عليها ؛ فإن هذا من رُعونات النفْس وحماقاتها. ولا تطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذي الفضل منهم ، وتنسىٰ فضل نفسك .

وسمعتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس اللهُ روحه - يقول : العارفُ لا يرى له على أحدٍ حقًّا ، ولا يشهد له على غيره فضلًا ؛ ولذلك لا يعاتِب ، ولا يطالِب ، ولا يضارِب .

والخشوع سببٌ موصِّل إلى الفناء الحقِّ ، الفاضل لا المفضول » .

« الدرجة الثالثة : حفْظُ الحرمة عند المكاشَفة ، وتصفية الوقت من مراءاة الخلْقِ ، وتجريد رؤية الفضْل » :

قال ابن القيم : « **وأما حفْظ الحرْمة عند المكاشفة** : فهو ضبْط النفْس بالذلِّ والانكسار ، عن البسْطِ والإدلال ، الذي تقتضيه المكاشفة ؛ فإن المكاشفة تُوجب بسطًا ، ويخاف منه شطْح ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأمَّا تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفِّي وقته عن

الرياء ؛ فإن أصحاب هذه الدرجة أجلُّ قدْرًا وأعلىٰ من ذلك .

وإنما المراد : أنه يُخفي أحوالَه عن الخلْق جُهْدَه ؛ كخشوعه وذلِّه وانكساره ؛ لئلّا يراها الناس فيُعْجبهُ اطّلاعُهم عليها ورؤيتهم لها ، فيفسَدُ عليه وقته وقلبه وحاله مع الله ، وكم قد اقتطع في هذه المفازة مِن سالِك ! والمعصوم من عصمه الله . فلا شيء أنفع للصادق من التحقُّق بالمسْكَنَة والفاقة والذل ، وأنه لا شيء ، وأنه ممن لم يصحَّ له بعْدُ الإسلامُ حتى يدعي الشرَفَ فيه .

ولقد شاهدتُ من شيخ الإسلام ابن تيمية - قدّس الله روحه - من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره ، وكان يقول كثيرًا : ما لي شيء ، ولا مني شيء ، ولا فيَّ شيء . وكان كثيرًا ما يتمثَّل بهذا البيت :

أنا المكَدِّي وابن المكدّي ... وهكذا كان أبي وجدِّي

وكان إذا أُثنيَ عليه في وجهه يقول : والله ، إني إلى الآن أجدِّد إسلامي كلَّ وقت ، وما أسلمتُ بعدُ إسلامًا جيِّدًا .

وبعث إليّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطِّه ، وعلى ظهرها أبياتٌ بخطِّه مِن نظْمه :

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ ... أنا المُسَيْكينُ في مجموع حالاتي
أنا الظَّلومُ لنفسي وهْي ظالمتي ... والخير إنْ يأتِنا مِن عنده ياتي
لا أستطيعُ لنفسي جلْبَ منفعةٍ ... ولا عنِ النفْسِ لي دفْعُ المضرَّاتِ
وليسَ لي دونَه مولى يدبِّرني ... ولا شفيعٌ إذا حاطتْ خطيئاتي
إلّا بإذنٍ مِنَ الرحمٰنِ خالقِنا ... إلى الشفيعِ كما قد جاء في الآياتِ
ولستُ أملِكُ شيئًا دُونه أبدًا ... ولا شريكٌ أنا في بعضِ ذرَّاتِ
ولا ظهيرَ له كي يستعينَ بهِ ... كما يكونُ لأربابِ الولاياتِ
والفقرُ لي وصْفُ ذاتٍ لازمٌ أبدًا ... كما الغِنىٰ أبدًا وصْفٌ له ذاتي

وهذه الحالُ حالُ الخلْقِ أجمعِهِمْ ... وكلّهم عنده عبدٌ له آتي
فمَنْ بغىٰ مَطلبًا من غيرِ خالقِهِ ... فهْوَ الجهولُ الظلومُ المشرِكُ العاتي
والحمدُ للهِ مِلْءَ الكونِ أجمعِهِ ... ما كان منهُ وما منْ بعدُ قد ياتي

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرىٰ الفضل والإحسان إلا من الله ، فهو المانُّ به بلا سبب منك ؛ ولا شفيع له تقدم إليه بالشفاعة ، ولا وسيلة سبقت منك توسَّلتَ بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليصُ شهود الفضْل لوليِّه ، حتى لا ينسبه إلى غيره ، وإلّا فهو في نفسه مجرَّدٌ عن النسبة إلى سواه . وإنما الشأن في تجريده في الشهود ليطابق الشهود الحق في نفس الأمر . والله أعلم »[(١)] .

تفاوُتُ الخشوع في القلوب ، ولعالي الهِمَّة أعلاه :

«متى تكلَّف الإنسان تعاطي الخشوع في جوارحه وأطرافه ، مع فراغ قلْبه من الخشوع وخُلوِّه منه- كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذي كان السلف يستعيذون منه .

قال أبو الدرداء : استعيذوا بالله من خشوع النفاق . قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسَدَ خاشعًا والقلب ليسَ بخاشع .

ويتفاوت الخشوع في القلوب بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعتْ له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع ؛ فمِنْ خاشعٍ لقوَّة مطالعته لقرْب الله مِن عبده ، واطِّلاعه على سرِّه وضميره ، المقتضي للاستحياء من الله ومراقبته في الحركات والسَّكَنات . ومِن خاشعٍ لمطالعته لكماله وجماله المُقتضي للاستغراق في محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته . ومِن خاشع لمطالعته شدَّةَ بطشِهِ وانتقامه وعقابه ، المقتضي للخوف منه . وهو سبحانه

---

(١) مدارج السالكين ١/٥٢٤ - ٥٢٥ .

جابر المنكسرةِ قلوبُهم من أجْلِه ، وهو سبحانه وتعالى يتقرَّب ممن يُناجيه في الصلاة ويعفّر وجهه في التراب بالسجود ، كما يتقرب مِن عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويُجيب دعاءهم ، ويعطيم سؤالهم ، ولا جبرَ لانكسار العبد أعظم من القرْب والإجابة »[1] .

وَصْفُ الحسَنِ البصري للخاشعين :

قال الحسن البصري : « إن المؤمنين لمَّا جاءتهم هذه الدعوة من الله ؛ صدّقوا بها وأفضى يقينُها إلى قلوبهم ، وخشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم . وكنتُ والله إذا رأيتُهم ، رأيتُ قومًا كأنهم رأيَ عيْنٍ ، فوالله ما كانوا بأهل جدَلٍ ولا باطل ، ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله ، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم ، ولكن جاءهم عن الله أمرٌ فصدّقوا به ، فنعتهم الله تعالى في القرآن أحسنَ نعْتٍ ، فقال : ﴿ **وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٣] . قال : حلماء لا يجهلون ، وإذا جُهل عليهم حَلموا . يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكَر ليلَهم ، خير ليل ؛ فقال : ﴿ **والذين يَبيتون لربِّهم سجّدًا وقيامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٤] ، تجري دموعهم على خدودهم فَرَقًا من ربِّهم .

وقال رحمه الله : لأمرٍ ما سهِروا ليلَهم ، لأمرٍ ما خشعوا نهارهم ؛ قال : ﴿ **والذين يقولون ربَّنا اصرفْ عنَّا عذابَ جهنَّم إنَّ عذابها كان غرامًا** ﴾ [الفرقان : ٦٥] . قال : وكلّ شيء يُصيب ابن آدم ثم يزول عنه فليس بغرام ، إنما الغرام الملازم له ما دامت السماوات والأرض . قال : صدق القومُ – والله الذي لا إله إلا هو – فعَمِلوا ، وأنتم تتمنّون ؛ فإياكم وهذه الأماني – رحمكم الله – فإن الله لم يُعطِ عبدًا بأمنيته خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرة . وكان يقول :

---

(١) الخشوع في الصلاة ص١٣ – ١٤ .

يا لها موعظة لو وافقت من القلوب حياة »[(١)] .

علوُّ خشوعِ النجاشيِّ وأصحابِه يقودُهم إلى الإحسان وأعالي الجِنان :

قال الله تعالى : ﴿ **لَتجدنَّ أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهودَ والذين أشركوا ولَتجدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارىٰ ذلك بأنَّ منهم قِسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينَهم تفيضُ مِن الدمعِ مما عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنا فاكتبْنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القومِ الصالحين فأثابهم اللهُ بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاءُ المحسنين** ﴾ [المائدة : ٨٢ - ٨٥] .

عن عبد الله بن الزبير قال : نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه : ﴿ **وإذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيضُ من الدمع ممَّا عرفوا من الحقِّ يقولون ربَّنا آمنَّا فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنهم كانوا كرابين - يعني فلّاحين - قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن ، آمنوا وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلّكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » . فقالوا : لن ننتقل عن ديننا .

﴿ **فاكتبْنا مع الشاهدين** ﴾ . قال ابن عباس : أي معَ محمد ﷺ ، وأمته هم الشاهدون ؛ يشهدون لنبيِّهم أنه قد بلّغ ، وللرُّسل أنهم قد بلّغوا . قال الحاكم : صحيح الإسناد ، ولم يخرِّجاه .

قال ابن كثير : « وهذا الصنف من النصارىٰ هم المذكورون في قوله : ﴿ **وإنَّ من أهل الكتاب لمَن يُؤمن بالله وما أُنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين**

(١) الخشوع في الصلاة ص٢٠ - ٢١ .

لله ... ﴾ الآية [آل عمران : ١٩٩] . وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يُؤمنون وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحقُّ من ربنا إنَّا كنا من قبله مسلمين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **لا نبتغي الجاهلين** ﴾ [القصص : ٥٢ - ٥٥] . ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ **فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار** ﴾ ، فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحقِّ ﴿ **جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ ؛ أي ساكنين فيها أبدًا لا يحولون ولا يزولون ؛ ﴿ **وذلك جزاء المحسنين** ﴾ : أي في اتباعهم الحقَّ وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع مَن كان »[1].

« قال الطبري : عن سعيد بن جُبير : ﴿**ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورهبانًا**﴾؛ قال : بعَث النجاشي إلى النبي ﷺ خمسين - أو سبعين - من خيارهم ، فجعلوا يبكون ، فقال : هم هؤلاء .

قال سعيد بن جُبير : هم رسل النجاشي ، الذين أرسل بإسلامه وإسلامِ قومه ، كانوا سبعين رجلًا ، اختارهم الخيِّر فالخيِّر ، فدخلوا على رسول الله ﷺ فقرأ عليهم:﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ ، فبكوْا وعرفوا الحق ، فأنزل الله فيهم:﴿ **ذلك بأنَّ منهم قسِّيسين ورُهبانًا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ . وأنزل فيهم ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يُؤْتون أجرَهم مرتيْن بما صبروا** ﴾ .

فهم لا يبعدون من المؤمنين ؛ لتواضُعهم للحقِّ إذا عرفوه ، ولا يستكبرون عن قبوله إذا تبيَّنوه ؛ لأنهم أهل دينٍ واجتهاد فيه ، ونصيحة لأنفسهم في ذات الله .

عن عروة بن الزبير ، في قوله تعالى : ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق** ﴾ . قال : ذلك في النجاشي .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٥٩/٣ .

قال ابن إسحاق : سألتُ الزهريَّ عن الآيات ﴿ **ذلك بأن منهم قسِّيسين ورهبانًا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمِعُوا ما أُنزل إلى الرسول ترىٰ أعينهم تفيض من الدمع** ... ﴾ الآية ، وقوله : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا** ﴾ ؛ قال : ما زلت أسمع علماءنا يقولون : نزلت في النجاشي وأصحابه .

قال ابن جرير في قوله تعالى : ﴿ **وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحقِّ ونطمع أن يُدخلنا ربُّنا مع القوم الصالحين** ﴾ : أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى رسول الله محمد ﷺ من كتابه ، آمَنوا به ، وصدقوا كتابَ الله ، وقالوا : ما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ، ونحن نطمع بإيماننا بذلك أن يُدخلنا ربُّنا مع القومِ الصالحين ... نطمع أن يدخلنا ربُّنا مع أهل طاعته مداخلهم من جنته يوم القيامة ، ويُلحق منازلنا بمنازلهم ، ودرجاتِنا بدرجاتهم في جنَّاته . فجزاهم الله بقولهم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ، خالدين فيها ، دائمًا فيها مُكْثُهم ، لا يخرجون منها ولا يحولون عنها ، وذلك جزاء المحسنين ، جزاءُ كلِّ محسن في قيله وفعْله . وإحسان المُحسِنِ في ذلك : أن يوحِّد الله توحيدًا خالصًا محْضًا لا شرْك فيه ، ويقرّ بأنبياء الله ، وما جاءت به من عند الله من الكتب ، ويؤدِّي فرائضه ، ويجتنب معاصيه ، فذلك كمالُ إحسان المحسنين الذين قال الله تعالى : ﴿**جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها**﴾ [آل عمران: ١٥] »(١) .

أورد القرطبي في تفسيره : « وهذه الآية نزلتْ في النجاشي وأصحابه ... لمّا كانت وقعة بدر وقتل اللهُ فيها صناديدَ الكفّار ، قال كفّار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشي ، وابعثوا له برجليْن من ذوي رأيكم ؛ يُعطيكم مَن عنده ، فتقتلونهم بمَن قُتل منكم ببَدر . فبعث كفار قريش عمرو

(١) تفسير الطبري ٥ / ٤ -٧ .

ابن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة بهدايا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك ، فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أميّة الضمري وكتب معه إلى النجاشي ، فقدم على النجاشي ، فقرأ كتاب رسول الله ﷺ ، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين ، وأرسل إلى الرهبان والقسّيسين فجمعهم ، ثم أمَر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن ، فقرأ سورة مريم ، فقاموا تفيض أعينهم من الدمع ؛ فهم الذين أنزل الله فيهم : ﴿ **ولَتجِدنَّ أقربهم مودَّة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ** ﴾ وقرأ إلى ﴿ **الشاهدين** ﴾ » .

كلماتٌ للحياة ، يدبِّجها يراعُ فقيدِ الإسلام سيد قطب ، طيّب اللهُ ثراه ، وأعلىٰ في الجنة مثواه :

قال رحمه الله : « هذا مشهدٌ حيٌّ يرتسم لهذه الفئة من الناس ، إنهم إذا سمعوا ما أُنزل إلى الرسول من هذا القرآن ؛ اهتزَّت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع ، تعبيرًا عن التأثُّر العميق العنيف بالحقِّ الذي سمعوه ، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاءً من التعبير إلّا الدمع الغزير ؛ وهي حالة معروفة في النفْس البشرية ، حين يبلغ بها التأثُّر درجة أعلى من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدِّي ما لا يؤديه القول ، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثُّر العميق العنيف .

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع ، ولا يقفون موقفًا سلبيًّا من الحقّ الذي تأثَّروا به هذا التأثُّر عند سماع القرآن ، والشعورِ بالحقِّ الذي يحمله ، والإحساس بما له من سلطان .. إنهم لا يقفون موقف المتأثِّر الذي تفيض عيناه بالدمع ، ثم ينتهي أمْره مع هذا الحق ، إنما هم يتقدَّمون ليتخذوا من هذا الحقّ موقفًا إيجابيًّا صريحًا .. موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قويَّة عميقة صريحة .

إنهم أولًا يُعلنون لربِّهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه ، ثم يَدْعُونه –

سبحانه - أن يضمَّهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق ، وأن يسلكهم في سلْك الأمة القائمة عليه في الأرض - الأمة المسلمة - التي تشهد لهذا الدين بأنه الحقّ ، وتؤدِّي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها ، لإقرار هذا الحق في حياة البشر .

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوِّق عن الإيمان بالله ؛ أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به ، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين .

فهو موقف صريح قاطِع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق .. موقف الاستماع والمعرفة .. ثم التأثُّر الغامر ، والإيمان الجاهز ، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة .

لقد علم الله صِدْق قلوبهم وألسنتهم ، وصِدْق عزيمتهم على المُضي في الطريق ، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه ؛ ولهذا الصفِّ المسلم الذي اختاروه ، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - مِنَّةٌ يمُنُّ الله بها على من يشاء من عباده ، واعتبارهم كذلك أنه لم يعدْ لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه، ورجاءهم في ربِّهم أنْ يُدخِلَهم مع القوم الصالحين .. لقد علم الله منهم هذا كله ، فقبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاءً لهم ، وشهِد لهم سبحانه بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين ، والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام والله جل جلاله قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين »[1] .

* * *

---

(١) الظلال ٢/٩٦٢ - ٩٦٣ .